اغتراب المثقف في الرواية الجزائرية المعاصرة رواية أرخبيل الذباب لبشير مفتي أنموذجا.

جمال سنوسي
d.senouci@univ-chlef.dz
طالب دكتوراه: تخصص أدب جزائري
المشرف الدكتور: إسماعيل زغودة
مخبر تعليمية اللغات وتحليل الخطاب كلية الآداب والفنون جامعة الشلف الجزائر .

تاريخ الإرسال:27-05-2020 تاريخ القبول : 23-06-2020 تاريخ النشر:30-06-2020

الملخص:

إذا كان الاغتراب ظاهرة نفسية محضة، فإنه يعتبر أيضا قضيّة أدبية بامتياز طغت على السطح مع جيل من الروائيين الشباب، الذين حاولوا جاهدين تلقّفها، فغربوا بذلك السّرد انطلاقا من هواجس الذات وصدام الواقع الذي غرس فيهم تلك العوالم الانعزالية عند شخصية المثقف عموما، فجاءت رواياتهم بمسحة اغترابية نفسية وبشير مفتي واحد من هؤلاء الذين تقاطع عندهم هذا الهاجس في جلّ متونه السّردية، وهذا ما تسعى هذه الدراسة للبحث فيه انطلاقا من غربة المثقف في رواية أرخبيل الذباب.

الكلمات المفتاحية:

الاغتراب، التغريبية، المثقف، بشير مفتي، أرخبيل الذباب.

Summary:

If alienation is a purely psychological phenomenon, it is also considered a literary issue with a privilege that has dominated the surface with a generation of young novelists, who have tried so hard to receive it, so they were left to be dismissed from the fears of the self and the clash of reality that instilled in them those isolationist worlds in the personality of the intellectual in general, and their novels came with a psychological alien tinge and the prophet of one of those who have this obsession in the intersection of the narrative of the sardular, and this study seeks to search from the western cultureof the intellectual in the intellectual archipelago.

Keywords:

Expatriation, westernization, intellectual, Bashir Mufti, archipelago of flies.

1- الاغتراب من الشعر إلى الرواية:

تعدّ ظاهرة الاغتراب من أكثر الظواهر غموضا في المجتمعات الإنسانية اليوم، ليس لأنّها تمس جميع البشر، بل لأنّ الوقوف على مدلولاتها عند الأشخاص يختلف من إنسان إلى آخر، فما بالك العلوم التي تتفق في الأصول وتختلف في الفروع عند حديثها عن هذه الظاهرة ، نظير هذه الهواجس المتداخلة عند البشر والتي تجعل من الحياة نفسها حياة غربة، وقد تمسّ ظاهرة الاغتراب جوانب عديدة، إلا أن الجانب النفسي يبقى الجانب الأكثر استثارة في النفس الإنسانية؛ لذلك جاء تعريف كلمة اغتراب في القواميس العربية على النحو التالي:

" والغرب الذهاب والتنحي عن الناس، وقد غرب عنا يغرب غربا، وغرّب وأغرب، وغرّبه وأغربه نجّاه. وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بتغريب الزاني سنة إذا لم يحصّن وهو نفيه عن بلده، والغربة والغرب النوى والبعد"[1] .

إذن فالاغتراب والغربة البعد عن الوطن وتركه وهجره، سواء كان ذلك الاغتراب ذاتيا طوعيا أو قسريا لا إراديا، فالغريب البعيد عن وطنه والجمع غرباء، وهي تحمل مدلولين أساسيين، مدلول مكاني؛ لأن الاغتراب هو ترك المكان، ومدلول اجتماعي لأنه العيش في بيئة أخرى غير البيئة التي اعتاد عليها. يقول امرؤ القيس مصوّرا غربة المكان بعد أن أدركه الموت، واصفا مفهوم الغربة الجسدية والمكانية والنفسية عندما شاهد قبر امرأة مدفونة في سفح جبل يقال له عسيب:

أَجَارَتَنَا إِنَّ الخُطُوبَ تَنُـــوبُ وإِنِّي مُقِيْمٌ مَا أَقَامَ عَســـــيبُ

أَجَارَتَنَا إِنَّا غَرِيبانِ هَهُـــــنُا وَكُلُّ غَرِيْبٍ لِلغَرِيبِ نَسِيـــــبُ

فَإِنْ تَصِلينَا فَالقَرَابَةُ بَيْنَـــــنَا وَإِنْ تَصْرِمِيْنَا فَالغَرِيبُ قَرِيْـــبُ

أَجَارَتَنَا مَا فَاتَ لَيْسَ يَـــؤُوبُ ومَا هُو آتٍ فِي الزَّمَانِ قَرِيْـبُ

ولَيْسَ غَرِيبًا مَنْ تَنَاءَتْ دِيَارُهُ وَلَكِنَّ مَنْ وَارَى التُّرَابَ غَرِيبُ [2]

[1] – ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت لبنان، دط، دت، ج1، ص:638.

[2] – امرؤ القيس: الديوان، تح، مصطفى عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط5، 2004، ص:49.

فهذا المفهوم للغربة عند امرئ القيس يحمل دلالة الخطوب والرّزايا والمصاعب والمتاعب، التي تجعل الإنسان مغرّبا، وليس بمقدوره أن يختار الصّاحب والأنيس، سوى أنّه يحسّ بغرابة من اغترب مثله، فهما سيّان في الغربة وترك الديار؛ فلا يؤنسه إلا غريب مثله، مثلما يجمع النّسب المتباعدين في العرق والعائلة، لذلك نرى امرئ القيس يخاطب هذه المرأة بمتناقضين وضدين لا يجتمعان، وهما الوصل والصّرم، وهما مصطلحان نفسيان غالبا ما يكثران عند عشاق الهوى والحب العذري، فيقول لها إن وصلتنا فنحن قريبان، قد ننسى جحيم الغربة، وإن تبتعدي عنا فإنّ القريب قد يكون غريبا هو أيضا إذا اختار البعد والهجر، ثم يستسلم لقدرية القدر وأن ما ذهب لن يرجع، وأن ما ينتظره هو آت لا محالة، وأنّ الغربة الحقيقية ليست البعد والنأي عن الديار ولكن الموت هو غربة الإنسان وجحيمه، وأنّ الذي يوارى التراب هو الغريب في حدّ ذاته؛ لأنه لا أنيس له تحت التراب.

ومفهوم الاغتراب عند الشعراء باعتبارهم أكثر الناس تضررا منه كثير فلطالما أورده الشعراء القدامى في نظمهم، معبرين عن جوانب نفسية نتيجة ما يقاسونه من ألم البعد عن الديار وهجر الأحبة. يقول زهير ابن أبي سلمى:

ومَنْ يَغْتَرِبْ يَحْسِبْ عَدُوا صَدِيْقَهُ ومَنْ لاَيُكَرِّمْ نَفْسُهُ لاَيُكَرَّمِ[3].

فزهير ينظر إلى مفهوم الاغتراب كمفهوم اجتماعي، وهو غربة الإنسان عن قومه وأهله ومعاشرته أقواما آخرين، فإن الأمر يلتبس عليه، فلا يعرف منهم العدو من الصديق؛ لأنه لم يجربهم فيختلط عنده مفهوم الصداقة فقد يجعل من العدو صديقا.

وهذا عنترة ابن شداد يصف تأثير البين والبعد عليه، رغم تجلده وصبره وثبوته في المعارك، إلا أن الزّمان رماه بالغربة والاغتراب عن من يحب فيقول:

كَمْ يَبْعِدُ الدَّهْرُ مَنْ أَرْجُو أَقَارِبُهُ عُنِي وَيَبْعَثُ شَيْطَانًا أُحَارِبُـهُ

فَيَالَهُ مِنْ زَمَانٍ كُلَّمَا انْصَرَفَـتْ صُرُوفُهُ فَتَكَتْ فِيْنَا عَواقِبُهُ...

وكَيْفَ أَخْشَى مَنَ الأَيَامِ نَائِبَـــةً والدَّهْرُ أَهْوَنُ مَا عِنْدِي نَوَائِبُهُ

كَمْ لَيْلَةً سِرْتُ فِي البَيْدَاءِ مُنْفَرِدًا واللَّيْلُ لِلْغَرْبِ قَدْ مَالَتْ كَوَاكِبُهُ[4] .

ويقول أيضا معبرا عن اشتياقه لعبلة وأنّ هلاكه في الحبّ أهون عليه من الغربة عن من يحب.

[3] – زهير ابن أبي سلمى: الديوان، شر:علي حسن فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1 ،1988، ص:111

[4] – عنترة ابن شداد: الديوان، دار صادر، بيروت لبنان، ط3، 2012، ص:91.

وهَلَاكِي فِي الحُبِ أَهْوَنُ عِندِي مِن حَياتِي إِذَا جَفَانِي الحَبِيْبُ...

ولقَدْ نَاحَ فِي الغُصُونِ حَمَامٌ فَشَجَانِي حَنِينُهُ والنَّحِيْـــــبُ.

بَاتَ يَشْكُو فِرَاقَ إِلْفٍ بَعِيدٍ ويُنَادِي أَنَا الوَحِيدُ الغَرِيبُ.[5]

وكثيرا ما كان الشعراء القدامى يسقطون آلام الغربة ووجيبها القاسي على الطبيعة والطيور المهاجرة، التي تعود إلى ديارها بعد تغرّب، فيخاطبونها مستسلمين لقدرية الاغتراب، حالمين بالعودة ورجوع الأيام إلى سالف عهدها. يقول عنترة ابن شداد مخاطبا طائر البان شاكيا له اغتراب الأحبة عنه:

يَا طَائِرَ البَانِ قَدْ هَيَجْتَ أَشْجَـــانِي وَزِدْتَنِي طَرَبًا يَا طَائِرَ البَـــــــانِ

إِنْ كُنْتَ تَنْدُبُ إِلْفًا قَدْ فُجِعْتَ بِـــــهِ فَقَدْ شَجَاكَ الذِيْ بِالبَيْنِ أَشْجَـــانِي.

زِدْنِي مِن النَّوْحِ واسْعِدْنِي عَلَى حَزَنِي حَتَى تَرَى عَجَبًا مِنْ فَيْضِ أَجْفَانِي...

نَاشَدْتُكَ اللهَ يَا طَائِرَ الحَـــــمَامِ إِذا رَأَيْتَ يَوْمًا حُمُولَ القَوْمِ فَانْعَانِـــي.[6]

واغتراب الحبيب ممّا يحفل به الشّعر العربي القديم خصوصا قصص الحب العذري، التي تصور اغتراب الأحبة، والحبيبة عن محبوبها، فيتشوق لاعجا جمر الشوق، يشده الحنين إلى رؤيتها، لأنه بدونها جسد بلا روح قد تغربت نفسه تغرب المحب الذي لا يهنأ له بال إلا بوجود محبوبته، فغربة هؤلاء غربة نفسية ذاتية فهم غرباء عن ذواتهم التي يصارعونها في الوفاء للمحبوب وهو قريب منهم، فما بالك إذا بعد ونأى عنهم فيخاطبونه بألم ومرارة الاشتياق والبكاء، وأجمل صور هذه المعاناة قيس بن الملوح وهو يخاطب ليلى في قصائده. يقول في إحداها:

حَبِيبٌ نَأَى عَنِي الزَّمانُ بِقُرْبِـهِ فَصَيَرَنِيْ فَرْدا بِغَيْـــرِ حَبِيْبِ

فَلِي قَلْبُ مَحْزُونٍ وعَقْلُ مُدَلَّهٍ ووحْشَةُ مَهْجُورٍ وَذُل4 غَرِيْبٍ .

فَيَا عُقَبَ الأَيَامِ هَلْ فِيْكِ مَطْمَعٌ لِرَدِّ حَبِيبٍ أَو لِدَفْعِ كُـــرُوبِ [7]

فهو لا يرى الحزن وذهاب عقله ووحشته إلا في ذهاب ليلى، فهو يعيش ذلّ الغريب عن دياره، فلا سند يسنده ولا بيت يأويه، ينتظر الأيام لعلّها تغير أو تبدل من حاله وتردّ إليه محبوبته.

---

[5] – عنترة ابن شداد: الديوان ،ص :100.

[6] – المصدر نفسه،ص :226.

[7] – قيس بن الملوح: الديوان، شر: رحاب عكاوي، دار الفكر العربي، بيروت لبنان، ط1، 1994، ص:38.

ويقول أيضا مناديا طيف ليلى الذي يزيد من وحشته وصبابته، فيخاطب حادي الإبل ويرى ليلى مغربة في إحدى إبله على هودجها قد بعدت المسافات بينهما :

أَحُجَاجَ بَيْتِ اللهِ فِي أَيّ هَـــوْدَجٍ وفِي أَيّ خِدْرٍ مِنْ خُدُورِكُم قَلْبِـــــي

أَأَبْقَى أَسِيْرَ الحُبِ فِي أَرْضِ غُرْبَةٍ وحَادِيكُمُ يَحْدُو بِقَلْبِي فَي الرَّكْـــــبِ

ومُغْتَرِبٍ بِالمَرجِ يَبْكِي بِشَجْـــــوهِ وقَدْ غَابَ عَنْهُ المُسْعِدُونَ عَلَى الحُبِ [8]

أما قصص الاغتراب القسري ففي الشّعر العربي الكثير منها يقول أبو فراس الحمداني:

فَكَمْ مِن حَزِيْنٍ مثْلَ حُزْنِي ووَالِـــــــهٍ وَلَكِنَّنِي وحْدِي الحَزِيْنُ المَرَاقِبُ

رَمَتنِي اللَّيَالِي بِالفِرَاقِ حَسَـــــــادَةً وهُنّ اللّيَالِي رَامِياتٌ صَـــوائبُ

ومَا كُنْتُ أَخْشَى أَنْ أَرَى الدَّهْرَ حَاسِدي كَأَنّ لَيَالِيْهِ لَدَيّ الأَقَـــارِبُ

ولَكِنّنِي فِي ذَا الزَّمَانِ وَأَهْلِـــــــــهِ غَرِيْبٌ وَأَفْعَالِي لَدَيْهِ غرَائِبُ.[9]

ويتقاطع محمود سامي البارودي مع أبي فراس في الغربة المكانية وتوقيع شعر الاغتراب والتغرّب عن الأهل والوطن، فيحاكي البارودي من سبقه من الشعراء، وينسج على منوالهم، ويتتبع خطا شعرهم، فيقول في إحدى قصائده معطيا صورة عن المثقّف المغرب عن وطنه:

أَبِيتُ فِي غُرْبَةٍ لَا النَفْسُ رَاضِيَـةٌ بِهَا وَلا المُلْتَقَى مِن شِيْعَتِي كَثَبُ

فَلَا رَفِيقٌ تَسُرّ النَّفْسُ طَلْعَتُـــــهُ وَلا صَدِيْقٌ يَرَى مَابِي فَيَكْتَئِـــبُ

فَهَلْ دَفَاعِي عَنْ دِيْنِي وَعنْ وَطَنِي ذَنْبٌ أَدَانُ بِهِ ظُلْمًا وأَغْتَـــرِبُ [10].

وكل هذه الدلالات التي رأيناها في مفهوم الاغتراب إنما هي دلالات تحمل طابعا نفسيا قبل كل شيء، وقبل أن يكون لها طابعا اجتماعيا وروحيا وعاطفيا وسياسيا ومكانيا وزمانيا؛ لذلك نجد دلالات الذهاب دون عودة ودلالة التنحي والبعد والهجر والنوى سواء عن رغبة أو على غير رغبة.

[8] – قيس بن الملوح: الديوان، ص:35، 36..

[9] – أبو فراس الحمداني: الديوان، شر: خليل الدويهي، دار الكتاب العربي ،ط2، 1994،ص:43.

[10] – محمود سامي البارودي: الديوان، تح: علي الجارم، محمد شفيق معروف، دار العودة، بيروت لبنان، 1998، ص:74.

أما من ناحية الاصطلاح فتتعدد دلالات الاغتراب من علم إلى آخر، فقد نجد دلالة الانعزال والوحدة والتوحّش والانفصال والانتقال والتغرّب والابتعاد وغيرها من المعاني الاصطلاحية التي تحتوي هذا المصطلح وعليه فإن هذا الاتساع في الدلالة جعل من مصطلح الاغتراب مصطلحا فضفاضا غير مستقر على تعريف واحد؛ لذلك اقترن هذا المصطلح بكل ما يهدد وجود الإنسان وحريته، وأصبح مفهومه يدور حول" أمور معينة بالذات، تشير كلّها إلى دخول عناصر معينة في مفهوم الاغتراب، مثل الانسلاخ عن المجتمع والعزلة أو الانعزال والعجز عن التلاؤم" [11].

وقد جاء في معجم علم النفس والتحليل النّفسي في مفهوم الاغتراب مايلي: " الاغتراب في نهاية أمره هو العالم الموضوعي الذي يمثل جماع الأطروحة في الروح المغتربة ...وهو جملة الأعراض التي يبدو معها المريض وكأنه غريب عن المجتمع الذي يعيش فيه. إنه التوافق العصابي بعامة حيث الهوة تزداد بين الفرد وعالمه"[12].

هذه التعاريف الكثيرة للاغتراب تجعل منه مصطلحا نفسيا واجتماعيا ودينيا وفلسفيا وسياسيا، وتربطها روابط وثيقة يبقى فيها الجانب النفسي أهم جانب، كونه الشعور الأول للإنسان المتغرّب سواء عن أهله أو عن ذاته.

وبوجه عام الاغتراب هو البعد عن الأهل والوطن، فالمرء" يمر أحيانا بأوضاع يفقد فيها نفسه، ويصبح غريبا أمام نشاطه وأعماله، ويكاد يفقد إنسانيته كلها، ففي حالة الاغتراب يستنكر الإنسان أعماله، ويفقد شخصيته وفي ذلك ما قد يدفعه إلى الثورة لكي يستعيد كيانه"[13].

ولعل أبا حيان التوحيدي أبدع في وصف مفهوم الغربة الاغتراب من وجهة نظر اجتماعية ونفسية وفلسفية يقول:

إنّ الغَرِيبَ بِحَيْثُ مَا حَطَتْ رَكَائِبُهُ ذَلِيْلُ

ويَدُ الغَرِيْبِ قَصِيْرَةٌ وَلِسَانُهُ أَبَدًا كَلِيْلُ

والنَّاسُ يَنْصُرُ بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَنَاصِرُهُ قَلِيْلُ.[14]

---

[11] – عبد اللطيف محمد خليفة: دراسات في سيكولوجية الاغتراب، دار غريب للطباعة، القاهرة،2004،ص:22.

[12] – فرج عبد القادر طه آخرون: معجم علم النفس والتحليل النفسي، دار النهضة العربية، بيروت لبنان، ط1، ص:59.

[13] – عبد اللطيف محمد خليفة: دراسات في سيكولوجية الاغتراب، ص:30.

[14] – أبو حيان التوحيدي: الإشارات الإلهية، تح: عبد الرحمن بدوي، دار العلم، بيروت لبنان، ط1، 1981، ص79.

ويزيد في وصف الغريب فيقول: الغريب من نطق وصفه بالمحنة بعد المحنة... الغريب ما إن حضر كان غائبا، وإن غاب كان حاضرا، الغريب من إن رأيته لم تعرفه، وإن لم تره لم تستعرفه، أما سمعت القائل حين قال:

بمَ التَّعَلُّلُ لَا أَهْلٌ وَلا وَطَنُ ولَا نَدِيْمٌ ولَا كَأْسٌ ولَا سَكَنُ [15].

ويركز أبو حيان التوحيدي على الجانب النفسي في وصف الغريب، وما يؤول أمره من فرقة وحرقة وشجن فيقول عنه:" يا هذا الغريب في الجملة من كلّه حرقة، وبعضه فرقة، وليله أسف، ونهاره لهف، وغداؤه حزن وعشاؤه شجن، وآراؤه ظنن، وجميعه فتن، ومفرقه محن، وسرّه علن، وخوفه وطن"[16].

فكلمة حرقة، فرقة، أسف، لهف، حزن، شجن،...إلخ كلها تحمل مدلولات الانكسار والذل واللهفة والحزن والاغتراب النفسي قبل الاغتراب البدني، إذ أنّ أصعب غربة ليست غربة الأجسام وإنما غربة النفس، حيث يشعر الإنسان بحالة من الانفصام عن الذات، وعدم تقبل الواقع، وهو أوّل اغتراب يعيشه الإنسان عندما يغترب عن نفسه، ويلحقه في ذلك اغتراب عن المجتمع، فينشأ عن كل هذا عزلة الذات في فوضى الواقع، عندئذ يصبح المغترب عاجزا عن الفعل غير مؤثر في المجتمع، وتصبح حياته دون معنى، فيؤدي هذا إلى بعض مخلّفات الاغتراب النفسي كالانتحار والانعزالية، أو التقوقع ورفض الذات، والوسواس القهري وفقدان الانتماء وغيرها.

وكل هذه الظواهر التي ذكرناها آنفا إنما هي ظواهر تتعلق بالإنسان بصفة عامة، سواء كان جاهلا أو متعلما، بل أن غربة الإنسان المتعلم أشدّ وطأة من غربة الإنسان الجاهل؛ ذلك أن درجة الوعي تؤثر في سلوك الإنسان وفعله وردة فعله، بل أن رفض الذات ورفض المجتمع ينطلق من وعي المثقف بجدوى الحياة وسط مجتمع يبدو له غريبا في أفعاله وسلوكه، وهذا ما يعجزه عن الإبداع، فيتيه بين غربة ذاته وغربة المجتمع فيصيبه داء الغربة، فيحجر نفسه أحيانا ويتيه في عقله وفعله أحيانا أخرى، مما يولّد له ضغطا نفسيا يكسر شوكته ويلعق من جحيم الاغتراب وكأسه.

إن الاغتراب الثقافي هو أحد أنواع الاغتراب وأكثرها تأثيرا في سلوك الأفراد، خصوصا الكتاب والشعراء والمفكرين منهم، ذلك أنهم أكثر الأشخاص تمرّدا على معايير المجتمع وقوانينه القيمية، فيظهرون الكثير من السلوكيات مثل" الانسحاب والبعد عن التعامل مع الجماعة، وعدم المشاركة في المسؤولية الاجتماعية، والتمركز

[15] – أبو حيان التوحيدي: الإشارات الإلهية، ص :80، 81.

[16] – المصدر نفسه، ص:83.

حول الذات، والانغلاق في دائرة الأهداف والمصالح الشخصية دون المصالح العامة، ورفض القوانين والمعايير الاجتماعية والثقافية "[17].

وإن كان الشعراء أكثر المثقفين حديثا عن الغربة والاغتراب في أشعارهم نتيجة رهافة مشاعرهم ورقة إحساسهم فيصبغون كل ذلك في ثنايا خطابهم الشعري، معبرين عن لواعج النفس ولهفتها إلى السكينة والاستقرار فتأتي قصائدهم بكائيات حزينة معبرة عن ألم الإلف والفراق، لعلهم يخمدون شيئا من ثورتهم النفسية التي تحرق أكبادهم ولعا وشوقا إلى الأحبة والديار، إلا أن الروائيين خصوصا يشاركونهم هذه الميزة فقد حاولوا تلقف هذه الظاهرة التي خصّ بها الشعر، وأعني القديم منه، وترجموا كل ذلك في مدوناتهم الروائية، محاولين محاكاة الشعر والشعراء خطيا فكتبوا عن الاغتراب خصوصا اغتراب المثقف.

وتعد الرواية الجزائرية المعاصرة الرواية الأكثر تمثلا لظاهرة اغتراب المثقف على وجه الخصوص، وذلك نتيجة الكثير من التحولات التي أحدثتها الأحداث السياسية التي جرت في البلاد آنذاك، لتصبح تيمة اغتراب المثقف إحدى التيمات التي اشتغل عليها الروائيون الجزائريون وأخص بالذكر جيل الشباب منهم

إن الروائيين الذين غرّبوا الرواية الجزائرية وجعلوا من شخصياتهم الروائية شخصيات غرائبية في سلوكها ونمط معيشتها كثر، إلا أن بشير مفتي يعد من أوائل الروائيين الذين كتبوا عن اغتراب المثقفين، حيث لاتكاد تخل رواية من رواياته من محنة المثقف ومعاناته. يقول بشير مفتي عن ذلك " في المشهد الروائي الجزائري الراهن اضطراب واضح ناجم من أنه لا يمكن توصيف الأمور، ولا نمذجة الأعمال الموجودة بطريقة واضحة كما قد يكون الأمر مع باقي الدول العربية، لقد عشنا خلال سنوات الدّم والعنف عزلتنا وأخذنا نصيبنا من تجربة السقوط"[18].

إن بشير مفتي ككاتب وكروائي عاش جحيم الغربة الذاتية انطلاقا من عنف الواقع الاجتماعي الذي عاشه سنوات التسعينات، والذي جعل منه كاتبا انتحاريا مهووس بقتل شخصياته، وهي تجربة الإنسان المثقف المنعزل قي بيته مع أوراقه، حيث الورقة البيضاء بالنسبة للكاتب غربة وجحيم يضاف إلى غربته الذاتية؛ لذلك المثقفون عموما هم أكثر الناس تأثرا من الاغتراب، حيث غربة الكتابة هي تجربة قاسية تؤدي إلى جحيم الهوس والانفصام الطوعي عن المجتمع. يقول بشير مفتي عن رؤيته لجحيم الكاتب والكتابة عموما " وحدي أعرف ذلك. أعرف أن الكاتب يعيش وحده؛ أي مع نفسه وأشباحه. ماذا ينتظر؟ لاشيء وكل شيء، محكوم

---

[17] – عبد اللطيف محمد خليفة: دراسات في سيكولوجية الاغتراب، ص:62.

[18] – بشير مفتي: سيرة طائر الليل، نصوص، شهادات، أسئلة، منشورات ضفاف بيروت لبنان، منشورات الاختلاف الجزائر ط1، 2013، ص:196.

بلحظة غريبة تجعله يتساءل محترقا وحارقا، لاسعا وملسوعا، جارحا ومجروحا، ينتظر أن ينفجر في لحظته تلك بالكتابة، فقط الكتابة لاغير الكتابة داؤه ودواؤه "[19] .

والكاتب والمثقف عموما يعيش في عالم غرائبي ينشد المدينة الفاضلة التي يبحث عنها وسط المتناقضات التي يحملها المجتمع؛ لذلك تجده يعيش حالة من القلق الوجودي والنفسي، يسقطها على معظم شخصياته؛ لأن هذه الشخصيات الروائية ليست سوى قطعة منه انفصلت عنه يحاول التملص والتخلّص منها في النّهاية، ولأن الكتابة بالنسبة إليه جحيم وغربة ذاتيه لابد عليه من خوض تجربتها، فهو يخلق الشخصيات والأمكنة والأزمنة الغريبة، ويجعل منها طلاسم عسيرة الفهم.

إن أصعب غربة للمثقف هي غربة الورقة البيضاء أثناء تحبيرها، فهي عالم مواز وحياة ثانية يعيشها الكتاب والمثقفون كبديل عن الحياة الحقيقية التي فقدوها في ذواتهم، فهم يعيشون الجحيم بين حياتين جحيم الكتابة وغربة الحياة. يقول بشير مفتي عن علاقة الكتابة بالمثقف:" الحياة هي الأجمل هكذا يقول الكاتب لنفسه وقد جلس وحيدا مع أوراقه البيضاء، وحيدا مع أصواته الداخلية وهو يرغب في تحبيرها، يجب أن أعيش وأتوقف عن هذا الهذر، والحياة هي الأَوْلى من كل شيء آخر، لكن الكاتب لايستطيع أن يتخلص من رغبته في الكتابة إنه موجود في الحياة ليكتب، حياته هي الكتابة وكتابته حياة ثانية له "[20].

ومن ثم تشكل الكتابة لهم عوالم انعزالية مع ذواتهم وأفكارهم، مهووسين بلحظات جنونية هي جنون المثقف ونرجسية الكتابة، والتي تخلق فيهم تلك الميزة التي تميزهم عن غيرهم من البشر، فالكتابة لحظة جنون وحالة شبقية لا يتخلّص منها الكاتب إلا بالخلق والإبداع؛ فهي شعلة متقدة تساعدهم على فهم الحياة وفهم ذواتهم، فهي لحظة مغامرة وحالة صراع خطيرة، وعالمها عالم غريب انفصامي وانعزالي: "لأن هناك ثمن فادح يدفعه الكتاب عندما يدخلون هذا العالم، وسيكونون على وعي تام بهذا الثمن، أو مدركين لفداحته والإحساس الدائم بالخسارة ولكي يكتبوا يجب أن ينفصلوا عن العالم في لحظة اتصالهم الجوهرية بالعالم تتوافر تلك العزلة الضرورية التي تشبه السجن، فالكاتب في صراع مستمر من أجل أن يكتب "[21].

ورغم أن الكتابة حالة غرائبية وجو شعوري متميز إلا أنها تصنع للكاتب عزلته الذاتية التي تحقق له السعادة مع شخصياته، التي تصبح المؤنس الأول له والمعذب الأول له ولحالته، خصوصا عندما تتمرد عليه وتنفلت من بين يديه وتخلق عالمها هي الأخرى، فيضطر إلى مجاراتها وربما التخلص منها؛ لذلك يدخل في حرب ضروس مع أشباحها التي تحاصره أينما اتجه، ليس لأنه انعزالي انطوائي فقط، بل لأن في دواخله لواعج

---

[19] – المرجع نفسه، ص: 189.

[20] – بشير مفتي: سيرة طائر الليل، نصوص، شهادات أسئلة ،ص:140.

[21] – ينظر: المرجع نفسه، ص:140.

تقهره " فهو كائن خاص انعزالي ومريض بنفسه، موسوس لأنه يعيش في مجتمع انفصامي، وهو يرغب في ترميم ذاته وسط الخراب المعمم "[22] .

وبشير مفتي واحد من هؤلاء الذين حاولوا ترميم الذات وسط سيطرة العنف، واختاروا صف الكتابة انتصارا للذات المريضة والقلقة، وجعل من رواياته روايات غرائبية تشبه غرائبية وانعزالية فرانز كافكا وشخصياته، لتقوده مرحلة التحولات إلى مقدمة المشهد، ويكون شاهدا على جيل الخراب وجيل الفوضى وأحد كتابه، ولم يكن له إلا أن يكتب كما يتصور الكتابة آنذاك، ليصنع أدبا غرائبيا وشخصيات غرائبية يمثل المثقف فيها واغترابه التيمة المشتركة بين جميع رواياته.

2- الاغتراب والعنف:

يشكل العنف الظاهرة الأكثر تمثلا في روايات بشير مفتي، حيث لا تخل رواية من مظاهره وأشكاله وطرقه ومدى تأثيرها على الشخصيات الفاعلة والشخصيات الهامشية في متونه الروائية، خصوصا تأثير العنف على المثقف عموما، ومدى شعوره باليأس والقهر، وهو قاسم آخر مشترك في رواياته حيث تسود مشاهد ضبابية كفكاوية مأساوية على الشخصيات ومدى تعاملها مع ظاهرة العنف خصوصا العنف الديني منه.

يفتتح بشير مفتي رواية أرخبيل الذباب بكلمة غاية في الأهمية، معطيا صورة على ما تعيشه شخصية "س" من مظاهر اليأس الوجودي، فهو يعيش وسط جو مخيف مليء بالعنف يقول على لسانه: " لم تكن الحرب واضحة ...لا شك أنني متعب. الغيوم الرمادية في السماء تبعث بداخلي حالة من السأم. أنا تعبان جدا منهك لا أجد أي مبرر لاستمرار المهزلة، الحانة باردة صارت دافئة منذ قليل، لا شيء يحدث هنا الوجوه ذاتها التي تأتي كل مرة تعود وتذهب تضيّع وقتها في لا معنى الحرب "[23].

فكلمة الحرب توحي للوهلة الأولى بجو جنائزي مخيف يجعل شخصية "س" تعيش حالة من الانفصامية الوجودية عن الواقع، فهو مقوقع على ذاته، يعيش في عالمه الانعزالي داخل الحانة التي لا يكاد يفارقها إلا في وقت متأخر من الليل، يقول:" صحيح أنا أشرب هنا لأنني قررت أن أنسى. أشرب كل مساء تقريبا ودون إرادة ثمة ما يجعلني أتذكر لقد حدثت أشياء فضيعة لا يمكن طيها بسهولة "[24] .

إن شعور شخصية "س" بأجواء الحرب والقتل والدمار صنع منه شخصية هامشية انعزالية يحاول نسيان ما يدور حوله من أجواء عنيفة يرفضها منذ البداية؛ لذلك ينغمس في الحانة والشرب كمكان يجد فيه ذاته

---

[22] – المرجع نفسه، ص:190.

[23] – بشير مفتي: أرخبيل الذباب، منشورات البرزخ، الجزائر، 2000 ص: 9.

[24] – المصدر نفسه، ص:9.

المغرّبة عن الخارج الذي يرفضه ولا يتقبله، ويشعره بالتفاهة وفقدان القيمة كمثقف وكاتب عاجز عن فعل أي شيئ أمام موجة العنف القادمة؛ لذلك يفضل الانسحاب والهروب والنأي بالنفس من سطوة الواقع، ويصبح شخصية غريبة عن ذاتها مغربة عن الواقع لا تفهم نفسها وما يدور حولها، فالكاتب المثقف في شخصية "س" شخصية هروبية يشكل له هاجس الذات والواقع صدمة تغرّبه عن تحمل مسؤولياته كشخصية مثقفة.

وأمام عجزه عن إيقاف الحرب وفقدانه للحب" تنتابه مشاعر مثل العجز، اللامعنى، اللامعيارية، العزلة الاجتماعية، الاغتراب عن الذات، فقدان الثقة، القلق، الشعور بعدم الانتماء، وهي ميزات الانسان الهامشي "[25] الذي يمثل انسحابه من الواقع وعزلته عن ذاته اغترابا ذاتيا يشعره بتفاهة الوجود واحتقار الذات أمام سلطان العنف والموت الذي يزلزل كيانه ويجعله يفقد بوصلة الزمن والوقت ويفضل قضاء مزيد من الوقت في الحانة كي لا يتآلف مع أجواء الحرب الدائرة خارجا" كلما دقت الساعة تدق عند منتصف الليل في هذه الحانة اليتيمة التي يفضل صاحبها عمي الربيع تركها مفتوحة حتى هذا الوقت المتأخر ...لقد تآلف مع وجودي بحانته منذ سبع سنوات تقريبا وهو يراني هنا جالسا في مكان محدد لا أبرحه إلا عندما يغادره الجميع عندما يصبح خاليا إلا مني ومن عمي الربيع

هيا لقد ذهب الجميع والحرب ؟

هيا الوقت متأخر .

والحرب هل ذهبت الحرب؟

لقد ذهبت هيا اخرج "[26] .

إن تراجيديا الحرب والعنف الدائر فيها قوضت الرغبة في الحياة عند شخصية "س" فكونه كاتبا حالما لم يعد باستطاعته التآلف معها فهمّه فقط النجاة بنفسه وسط هذه الأجواء المأساوية التي جعلته يفقد كيانه كمثقف فاعل في المجتمع ليتحول إلى مجرد ذبابة تبحث عن النجاة لنفسها .

إن الإحساس بالغربة ووجيعها وسط هذه الأجواء تدفع بشخصية"س" إلى أزمات نفسية معقدة حيث لم يسعفه الهروب من الواقع ولا من نفسه لينكسر تحت ضربات العنف المتتالية ويقرر تعنيف ذاته بعدما شاهد مآسي القتل والدم ليفقد الرغبة في الحياة وثقته في البلد الذي ينهار أمامه غير قادر على فعل شيء .إنها مأساة المثقف العاجز المستكين للألم الداخلي الذي يشعره بالإحباط والتفاهة والوحدة يقول "س" معبرا عن كل ذلك" لم أكن لأتحمل وحدتي تلك كانت تعني شيئا واحدا في رأسي الانتحار لا غير هل فكرت في الانتحار حقا؟. نعم

[25] – عبد اللطيف محمد خليفة: دراسات في سيكولوجية الاغتراب، ص:145، 146.

[26] – بشير مفتي: أرخبيل الذباب، ص:11.

أكثر من مرة، وأكثر من مرة جابهت ضعفي وتخاذلي حاولت أن أضع حدا لهذه النفس التافهة بعد أن أصابتني الخيبة في كل العالم "[27].

إن التفكير في الانتحار عند شخصية "س" هو الفشل في إيجاد بدائل يمكن أن تنجيه مما هو فيه من هذيان وهوس داخلي، أدى به إلى شبه حالة جنونية وانفصامية بينه وبين ذاته، كإنسان أولا وككاتب ومثقف عاجز ثانيا، ليدخل مرحلة السوداوية والاكتئاب والوسوسة الذاتية، وكلها مؤشرات تدفعه إلى التفكير في الانتحار ومجابهة الموت بالموت، لتبدأ مرحلة البعد عن المجتمع والناس والدخول في عوالم انعزالية تمهيدا لإقناع النفس بحتمية النهاية، ووضع حد للحياة، بعد أن جرّب كل الوسائل في الخلاص من سطوة العنف والواقع. " كنت أريد أن أهرب من كل هذا، وأن أضع لنفسي خريطة مختلفة لعالم جديد، التقوقع حول نفسي كان ضروريا أيامها والبحث عن طريقة للمقاومة، كانت جبهة الحرب منفتحة، الموت ينظر إلى كل وجه، يترصد كل خطوة للاستعداد للانقضاض على أي أحد "[28] .

وبعد فشل المحاولات في الاختباء والهروب من واقعه الموبوء بالعنف والقتل، يقرر "س" مجابهة ذاته بعد أن يعيش هذه الأجواء الاغترابية وبعد أن أصابته السآمة والضجر، وبدا له كل شيئ مأساويا قاتما، ويفكر في تدمير نفسه بالانتحار، وهو" انتحار سوداوي اكتئابي يرتبط غالبا بحالة شاملة من الكرب العميق الذي يؤدي بالمريض إلى فقدان التقدير الصحيح للعلاقات التي تربطه بالناس والأشياء من حوله، فلا يعود يغريه أي من الأفراح والمسرّات فهو يرى الدنيا سوادا حالكا "[29].

وفي هذا الجو العنيف يشعر "س" بالغربة اتجاه هذا الواقع، فهو لم يعد كاتبا مؤثرا ولا مثقفا فاعلا، ويحس بعبثية الوجود، ويدخل في عوالم الفناء والموت، ويبعث برسائل مشفرة لواقعه كمثقف عاش جحيم الغربة وسط خراب العنف، ويختار طريقة خاصة لرحيله. " قررت بعد أن شربت حتى صرت مخمورا أن أبعث لكل الجرائد الوطنية والدولية ووكلات الأنباء والقنوات المسموعة والمرئية، رسالة أعلن فيها خبر انتحار "س"، من المضحك أنني وضعت سطرا تحت كلمة كاتب حتى يأخذني الجميع بالجدية المطلوبة "[30].

وبذلك تنطفئ شمعة "س"ككاتب ومثقف غَرّبته أحداث العنف عن واقعه، ويختفي عن الأنظار ويترك رسالته ومخطوطه ليواصل الحكاية " أما "س" لا أحد يعلم ما الذي حدث له بعدها لقد قرأ الجميع بيان انتحاره

---

[27] – المصدر نفسه،ص:118.

[28] – بشير مفتي: أرخبيل الذباب،ص:119.

[29] – إميل دوركايم: الانتحار، تر:حسن عودة، منشورات الهيأة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة دمشق،2011، ص: 34.

[30] – بشير مفتي:أرخبيل الذباب، ص:13.

على صفحات الجرائد الوطنية، وكل ما علمته أن مخطوط روايته الثانية طبع على نفقة صديقه محفوظ وكان عنوان الرواية أرخبيل الذباب"[31] .

3- الاغتراب النفسي:

يرتبط الاغتراب النفسي ببقية الأنواع حيث يعتبر أشدّ أنواع الاغتراب تسلطا على الجسد، فهو متلازمة لاتنفكّ تُضْعف النفس وتهدّها شيئا فشيئا، حتى يحدث انفصام بين الروح والجسد، ويدخلان في صراع وجودي ومرضي خطير، حيث يدافع الجسد عن نفسه رغبة في البقاء وتتصدع الروح وتنهار رغبة في الفناء، وكل هذا صراع نفسي داخلي يؤثر على الإنسان ويجعله يشعر بحالات انهزامية،" فتزداد المسافة بين الذات والجسد بأن تحاول الذات الحط من قيمة جسدها أو البحث فيه عن أسباب اغترابها"[32] .

غالبا ما يبني بشير مفتي نصوصه السردية على شخصيات نفسية من عوالم مثقفة، تعاني نفسيا واجتماعيا وفكريا، حيث تظهر منهزمة لأوّل وهلة، تعاني صراع الأفكار في عالم متغير لا يطاوعها، ولا يتغير بمفهومها وحساباتها، والاغتراب النفسي في روايات بشير مفتي يرتبط أيضا بأوضاع سياسية معقدة، مما يجعلها تتصدع داخليا، وتبدأ في الهروب من واقعها ومن جسدها بحثا عن الأمان المفقود.

ومن أمثلة الاغتراب النفسي في رواية أرخبيل الذباب شخصية سمير الهادين هذا الرسام والفنان الذي يقف عاجزا عن رسم صورة أخرى، وينهار مثلما تنهار لوحاته وأحلامه. "سمير عابثا يحاول أن يتأكد من قدرته على تطويع تلك الفرشاة التي يرسم بها، محاولا أن يدفعها للتّحرك بتلقائية، لكن ملامح وجهه كانت تفضح الآلام الكبيرة التي تمزقه عميقا من الداخل، كانت تلك هي المرة الأولى التي أرى فيها سمير عاجزا عن الرسم، وظهر لي أنه إن لم يفعل ذلك فسيكون شعوره باليأس قاتلا للغاية"[33] .

وهنا تبدأ النفس في قهر الجسد وإتعابه وإذلاله، ويفقد سمير الهادي مقومات الإحساس بالوجود في الحياة ويتعرض للانشطار والضعف والانهيار الداخلي، ويختار العزلة الذاتية في غرفته وحيدا، لا يخرج منها إلا لملاقاة نظرائه من المثقفين الذين يشاركونه الآلام نفسها، وأمام هذا العجز ينكسر كمثقف، ويزيده ألما فقدانه للرغبة في الإبداع، ولا يعرف أيّ صورة يرسم ولا أيّ اتجاه يسلك. " في تلك الساعة المتأخرة من الليل حيث يمكن لسمير أن يستسلم قليلا لحالته الوجدانية المتكسرة، أن يشعر بالفراغ والحزن، أن يمتلئ بأصوات الأشباح

---

[31] – المصدر نفسه، ص: 151.

[32] – يحي عبد الرؤوف عبد الله: اغتراب الشخصية الروائية، دراسة في روايات الطاهر بن جلون، رسالة ماجستير جامعة مؤتة، الأردن، 2004، ص:26.

[33] – بشير مفتي أرخبيل الذباب، ص:23.

التي تزوره كلما خلى إلى عزلته، وأن ينصت عميقا لتلك الأشياء المتداخلة والمبهمة والغامضة والحالمة، تلك التي توحي بأن عالما بأكمله يناداح في أعماقه الملتهبة"[34] .

فسمير الهادي ينسحب من الواقع الذي يرفضه ويهرب منه، ويحاول تشكيله في لوحته التي لم تطاوعه وبذلك" تنعزل نفسه عن المجتمع وقضاياه العامة، إلى عالم خاص من صنع مخيلتها الخصبة من دون أن تتمكن أن تجد فيه ملجأ حقيقيا من المشاكل التي تلاحقها من دون رأفة"[35] .

لذلك يختار سمير الهادي كمثقف الانكفاء على الذات، ويختار اللانتماء فهو لا يربطه بهذا الواقع سوى ريشته التي طلّقها هي الأخرى بعد أن أصبحت غريبة عنه، لتقتل فيه حاسة الإبداع والخلق" إنها تدفعه إلى الهذيان المرّ إلى حالة الفزع مما سيحدث له وما سيحدث، هذا بالضبط ذلك العجز القاهر عن حمل الفرشاة ومواصلة رسم لوحته والعجز على تشكيلها والتحاور معها ... إنه مستسلم للحظته قابع في مكان ينظر إلى السقف الذي يتشقق ببطء، ويأذن بانهيار مفاجئ في أية لحظة. انهيار سيذهب معه سمير حيث يريد"[36] .

فسمير الهادي الذي فقد ريشته وسط زحمة التدافع إلى الهاوية، يحس بمرارة واقعه كمثقف ورسام وفنان أولا وكمبدع يعاني اجتماعيا ثانيا؛ لذلك تراه ينفصل شيئا فشيئا عن واقعه ثم عن لوحاته وريشه، ثم عن ذاته ويحس بالعجز وفقدان القيمة، إذ لا مكان للإبداع والحب والجمال وسط هذه الأجواء التراجيدية التي تبعث على الموت، لذلك يفقد المغزى من الرسم والفن، ويضيع منه الهدف ويفقد معنى الحياة، ويبدأ يتشيؤ إلى أفكار تغرّبه عن واقعه، وتدفع به نحو عالم الجنون وفقدان العقل بعد أن تضيع منه لوحته الأخيرة، ويشعر بالتفاهة واللامعنى وفقدان القوة التي تدفعه إلى الرسم والإبداع. "مع الوقت فقد سمير الهادي عقله دون شك، فقد إدراكه للعالم كانت مدينة العاصمة تحيي فيه نبض الهزيمة، توقظ بداخله الشرور التي تفتك بالقلب، تحوله إلى مدار للعزلة وحرب ضروس ضدّ البقاء على حيويته الملتهبة"[37] .

وسرعان ما يبدأ سمير الهادي في الإبحار في عوالم مجهولة، ويرسم لنفسه طريقا لإنهاء لوحته التي تشعره بالإحباط والعجز، ويتحول من النقيض إلى النقيض، من رسام وفنان حالم ومبتسم دوما إلى شخص مغترب عن نفسه وواقعه وذاته، ليبدأ الجنون مع تراكم الألوان السوداء على لوحاته. "كان ينهض ليلا ويخرج

---

[34] – المصدر نفسه، ص:43.

[35] – حليم بركات: الاغتراب في الثقافة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان، ط1، 2006، ص: 175.

[36] – بشير مفتي: أرخبيل الذباب، ص:43، 44.

[37] – المصدر نفسه، ص:106.

إلى الشوارع الصامتة، إلى مدينة غلفها الخوف وحاصرها الذعر، وسيّجها حضر التّجوال. كان يخرج ليتحدى ألم الحصار ودمار الرعب الذي كان ينهشه"[38] .

إن اغترابية سمير الهادي هي إبحار في عوالم مجهولة، وتجسيد لطبيعة الشعور اللاواعي المؤدي إلى التلاشي والهوس والجنون. " فجأة يتوقف عن الرسم، يرتدي جاكيتته البنية، يضع على رقبته الشال الفلسطيني يحمل علبة سجائره ويخرج لا يعود إلا في الصباح...كانت أخبار القتل تجعله يرتعش يمرض ويقلق ويصاب أحيانا بحمى ساخنة تتركه أسير الفراش، يتكلم مع نفسه، يدخن كثيرا ويرفض أن آخذة إلى المستشفى "[39].

وأمام ازدياد العنف والقتل والهمجية والموت يختار سبيل الهروب من ذاته، التي لم تعد تستوعب هذه اللوحات العنيفة، ويفكر في أقرب الحلول للخلاص من نفسه، والخلاص من لوحته التي لم يستطع أن يضيف إليها شيئا، ويفقد حاسة الإبداع داخل ذاته بسبب الضغط النفسي الرهيب الذي يعيشه كمثقف مهمّش اجتماعيا ومغرب فكريا ومرفوض واقعيا. "رأيت سمير الهادي ذلك الصباح مثلما لم أره من قبل، عبوس ومتشائم، تنطلق من عينيه شرارات الحسرة واليأس، رأيته كالمتشرد بالقرب من ثانوية الأمير عبد القادر "[40].

ويختار سمير الهادي وضع حدّ لحياته، بعد شعوره بعدم بجدوى الحياة التي حولته إلى شخصية غريبة وقتلت فيه حاسة الفنان." كانت جثة سمير الهادي ملقاة على طاولة حديدية مغطاة بإزار أبيض، خارجة لتوها من ثلاجة الموتى...أظن بأنّ سمير الهادي قد فكّر طويلا قبل أن يقدم على هذه المخاطرة، قبل أن يرمي بنفسه داخل الدوامة التي تطحن كل شيئ...ما فعل سمير الهادي لم يكن إلا جنونا محظا، أظن أنه كان يريد أن يقول لنا شيئا، وأنه لم يكن يريد أن يموت فقط، جثته كانت مثقوبة بالرصاص تماما مثل لوحته السوداء"[41].

4- الاغتراب المكاني:

يشكّل اغتراب المكان عند بشير مفتي أحد أهم المكونات المشتركة في رواياته، حيث أنه رغم تعدد الأمكنة إلا أنها تشكل في مجملها نفورا منها عند الشخصيات الروائية، التي لا تستأنس بالمكان وتفرّ منه، وتراه يبعث على السأم والضجر، فهو رغم اتساعه يضيق عليها ويخنقها، نتيجة المتغيرات التي لحقت به خصوصا هاجس العنف الذي غير الصورة النمطية للمكان. تقول شخصية مصطفى معبرة عن غرائبية المكان " ذات يوم طرق بابي أناس مجهولون، وهددوني وقالوا كلاما مخيفا، وشتموني وأرغموني على أن أحني رأسي عندما أردّ عليهم،

[38] – المصدر نفسه، ص:109.
[39] – بشير مفتي: أرخبيل الذباب، ص:109.
[40] – المصدر نفسه، ص :143.
[41] – المصدر نفسه، ص:149، 150.

ثم هددوني بالقتل إن أنا تفوهت بشيء، لحد الساعة مازلت أجهل من هؤلاء، ولم جاءوا إليّ وما الذي أرادوه بالفعل، وبعدها عشت غربتي الجحيمية وتنقلاتي المستمرة من بيت لبيت ومن صديق لصديق "[42] .

فقول مصطفى غربتي الجحيمية تدلّ على نفوره من هذا الحيز الذي من المفروض أنه يصنع ذاته ويحس فيه بوجوده وكيانه، حيث لم يعد المكان آمنا، والانتقال من بيت لبيت ومن صديق لصديق هو بحث عن الكينونة النفسية، وعن استقرار الفكر والعقل، طالما أنّ الخوف والرعب يملأ المكان. يضيف قائلا:" بقيت أحس مع كل خطوة أخطوها أنهم ورائي وأمامي، وبقربي يمينا ويسارا، وفي الليل داخل كوابيسي يخرجون ويدخلون كما يشاءون، لقد احتلوا خيالي وأحسست أنها نهايتي"[43] .

فهذا الوسواس القهري من المكان يجعله ينفر من البيت كفضاء مغلق، ثم ينفر من الشارع والبلد كفضاء مفتوح على الهاوية، ويجعله الخوف على درجة من الشك والارتياب من جدوى البقاء في مكان يشكل عليه خطرا وشيكا، خصوصا مع التهديدات التي تطاله ككاتب، فيختار الفرار من غربة المكان المتآلف إلى غربة المكان المختلف، ويحسم أمر السفر والابتعاد عن حيزه الوجودي. " معك حق سأسافر لا لن أتردد في هذا سأجمع ملابسي الآن وكتبي أيضا، وكل ما سأحتاج إليه سأحاول أن أبدأ من جديد؛ لأنني بدون هذا لن أنقذ نفسي سأنهار حتما، هذا إذا لم أكن قد انهرت فعلا"[44].

فهذا الانهيار الذي يتحدث عنه مصطفى هو انهيار البلد كمكان، والذي لم يعد آمنا على شخصه، فهو يرى فيه مواتا حقيقيا لذاته ككاتب يحلم بالكتابة بعد أن جعلته كوابيسه عاجزا عنها، يترقب لحظة الإجهاز عليه دون أن يعلم سبب ذلك، فهو يحس بجحيم المكان وعنف الورقة البيضاء وهي تنفلت من بين يديه عاجزا عن تحبيرها، حيث تستبيه الأحداث الدائرة في الخارج ويصبح البلد بالنسبة إليه عدوه الأول، وينقلب المكان في وحشته وغربته يعاني فيه اغترابا نفسيا ووجوديا. "سأسافر لن أبقى هنا، كنت أقول دائما بأن هناك معنى لوجودي وحتى لنضالي، كنت أشعر بأنّ هناك حقيقة ما يجب التمسك بها الانتصار لها، ولكن الآن لم يبق هناك ما من شأنه أن يملأني بالنشوة أشعر بالشيخوخة ثلاثون سنة فقط تحولت خلالها إلى عجوز لا يقدر على التنقل بين بيته والعمل، كأن مصطفى القديم مات انتهى تماما"[45].

فتأثير المكان على شخصية مصطفى يصنع منه شخصية هشّة، رغم المقاومة المفتعلة في البداية، حيث ينهار تحت ضربات العنف والإذلال الذي لحق به من أشخاص غرباء لا يعرف أي جهة يتبعونها، وهنا تبدأ

---

[42] – المصدر نفسه، ص:29

[43] – بشير مفتي: أرخبيل الذباب، ص:29.

[44] – المصدر نفسه، ص:29، 30.

[45] – المصدر نفسه، ص:28، 29.

مشاكله النفسية، ومعاناته الداخلية مع البلد ككل، الذي يرفض أمثاله من المثقفين، بعد أن تورط في مهاجمة الواقع الذي يعيشه البلد كحيز يسع الجميع، ورفضه للعنف والدعوة إليه ليجد نفسه ضحية له هو أيضا، دون أن يقدر على فعل شيئ سوى التفكير في الهرب وترك المكان الذي لم يعد يتعايش معه، ويحس فيه بنفور وقلق كبيرين. " مصطفى فقد ثقته في كل العالم، ولم يكن يكتب مقالاته السياسية إلا من هذا الباب ، لقد أفزعوه

بل جعلوه يفقد عقله...مصطفى ينهار بصورة أو بأخرى، الألم يمزقه الآن، لقد أضاع خيط الحياة وعقله لم يعد معه، وهو حتما في حالة يرثى لها"[46].

فغرائبية المكان بالنسبة لشخصية مصطفى هي من تملي عليه هواجسه النفسية، إذ هناك علاقة بين ما يشعر به والمكان الذي يعيش فيه إذ لم يعد مستملحا، فغربة المكان تحدد الملامح السيكولوجية لشخصية مصطفى وتملي عليه جوانبه الفكرية، ويلقي المكان مزيدا من الضوء على شخصيته، فالخوف يسكن نفسه بعد أن اشتدت الحرب في الخارج.

"لقد بقي يقول لي:

الآن أنا خائف بالفعل.

مم.

من كل شيئ.

حاول أن تصمد.

هذه الحرب القذرة أكرهها أكرهها .

لا تنهزم هذا ما يريدونه بالضبط."[47]

إن تدمير المكان عن طريق تخريبه يضع شخصية مصطفى أمام هذا الرعب، فصور من أرعبوه مازالت تسكنه؛ لذلك يرفض الحرب ويرفض المكان الذي تدور فيه، ويبحث عن الاغتراب عن وطنه الذي يحبه كما يتمناه، ويكرهه كما هو مشكل في الواقع؛ لذلك يختار النفي الذي يُفرض عليه فرضا، ويُقتلع من تربته وماضيه ومكانه وفضائه المشكل لذاته." يجب أن تبقى مختفيا. رأسك مطلوب، وهم ينفذون كل ما يخططون له، عليك أن

[46] – بشير مفتي: أرخبيل الذباب،ص:37– 39

[47] – المصدر نفسه، ص:41.

تصمد وأن تسافر...في البداية كانوا يقولون مقالاتك جريئة والآن أدفع الثمن وحدي...أنا خائف وعلي أن أبقى مختفيا حتى النهاية "[48] .

وتختار شخصية مصطفى الهروب بدل المواجهة، فهو رغم جرأته على قول الحقائق إلا أن العنف يصنع منه إنسانا يائسا دون هدف؛ لذلك يفكر في الانسحاب وتغريب الذات عن هذا الواقع ونسيانه ومحاولة لملمة الذات، ويختار الغربة التي يجد فيها راحة نفسية بعد أن فقد أنس المكان وأصبح وطنه غريبا عنه. " مصطفى هاجر إلى بلد آخر واستطعت أن أطمئن عليه كان لابد أن يفعل ذلك من أجل أن يجد راحة القلب وسعادة الكتابة بكل حرية وتوقد "[49].

5- الاغتراب السياسي:

يعدّ الاغتراب السياسي من أكثر الأنواع شيوعا وذيوعا من حيث التقسيمات والتفريعات الموجودة لظاهرة الاغتراب، وأكثرها خطورة على الإنسان، الذي سواء كان اغترابه اختياريا أو إجباريا فإنّه يضعفه وينحله ويهز كيانه هزا عنيفا، إذ يظل ملاحقا له طيلة فقدانه للأهل والوطن، فهو حالة شعورية دائمة قد يتناساها الإنسان لكنها تطفو دائما على السطح؛ لأن فقدان المكان كحيز وجودي له مكنونات نفسية لا يمكن أن يعوضه مكان آخر حتى ولو كان أحسن منه اجتماعيا، لأنّ الحنين ولواعج الشوق تظل تأسر الإنسان إلى تربته وأصله وهذا ديدن البشر.

لقد بنى بشير مفتي روايته أرخبيل الذباب على فكرة الهروب والهجرة والاغتراب السياسي، وهو ما يجعلها رواية تغريبية بامتياز، خصوصا أن الجامع بين شخصياتها أنها شخصيات مثقفة على اختلاف توجهاتها وميولاتها، وهذا ما يزيد من وطأة الاغتراب خصوصا السياسي منه على نفسية الشخصيات، وخير من يمثل الاغتراب السياسي في هذه الرواية هي شخصية محمود البراني، الذي أفرد له بشير مفتي مساحة سردية في نهاية الرواية ليسرد توجّعاته من الاغتراب السياسي يقول:" لم يكن ما يخيفني هو القتل، مرات عديدة فكرت أن قتلي قد يكون خلاصا نهائيا لي، فبعد مرحلة الجنون ليس هناك ما بقي لي كي أتشبث به، لقد قضيت حياتي منفيا وهاربا من خطر تلك المجموعة المجهولة التي لم يعرفها "س"[50]

تبدأ غربة محمود البراني زمن الاستعمار عندما التقى بشخصية فاطمة في إسبانيا وأحبها وأحبته، لكن تسلط والدها وجبروته ونفوذه أرغمه على الانسحاب تحت وطأة التهديد بالقتل، وهنا تبدأ غربته الحقيقية غربة

---

[48] – المصدر نفسه، ص: 42، 43.

[49] – بشير مفتي: أرخبيل الذباب، ص:119.

[50] – المصدر نفسه، ص:124.

البلد وغربة الحب الذي يضيع من بين يديه. "كلام مخيف وشرس كانت تنطلق به شفاه غليظة ووجوه ملثمة ولا تعرف إن كان ذلك كابوسا أو حقيقة، إن كان ذلك فيلما بوليسيا أم قصة واقعية تعيشها حقا"[51] .

وما يزيد من غربة المكان السياسي هو فقدانه لصديقته فاطمة ولابنته التي في بطنها، والتي تولد في الجزائر ويحرم من رؤيتها ومعانقتها ويتزامن هذا مع استقلال الجزائر ودخولها مرحلة الشغب السياسي حول السلطة، مما يؤجّل مشروع العودة إلى البلد. "بقيت أعيش على لحظة حلم أبدية أن أعود إلى البلاد ذات يوم لأرى فاطمة وابنتي، لم أتصور أن ذلك ممكن، كانت الجزائر قد استقلت بالفعل وشهدت منذ سنواتها الأولى ذلك الصراع العنيف حول السلطة الأمر الذي أفشل مشروع عودتي "[52] .

إن الغربة السياسية بالنسبة للمثقف هي غياب العدالة الاجتماعية والإحساس بالقهر والضياع في ظل غياب المساواة والتفرد بالرأي والحكم، وقمع المخالفين في الرأي، خصوصا أمثال محمود البراني الذي تزيد معاناته مع فقد قيمة المثقف والكاتب في جحيم الغربة ليشتغل في أحد الخمارات والتي لا يقصدها في الغالب إلا المهمومون والمغربون في ذواتهم، الذين لم يستطيعوا إيجاد جسر للتواصل مع الواقع. يقول محمود البراني معبرا عن ألم الانسحاق الذاتي: "كنت أعمل كنادل يوزع المشروبات على زبائنه، وكنت أشعر بضيق من ذلك العالم الكئيب الذي يأتيه كل من فقد عمله أو تركته زوجته، أو عاهرة تبيع جسدها بأثمان بخسة، ولا أخفي أن ذلك العالم من جهة أخرى مصدر عزاء، فالغالبية كانت تأتي لتنسى آلامها وتحكي قصصها التعيسة، فكنت أخفف عن نفسي بذلك من وحشة الغربة ومن ذكرى فاطمة "[53].

فمحمود البراني يعيش بين عالمين متناقضين، عالم مفروض عليه نظرا لظروفه الاجتماعية والتي تجبره على القيام بأحقر الأعمال بالنسبة لمثقف وكاتب ينسحق في خمارة لتضيع فيها سنوات عمره في صوت كؤوسها، وترنح مرتاديها، ومن جهة أخرى عالم يقبله كونه لم يستطع أن يجد ذاته المبدعة خارجها، فلم يكفيه قراءته للكتب والعمل في مكتبة صديقته مادلين أن يبدع شيئا، سوى العدمية المقيتة التي جعلته شبه منهار يفكر في العودة من غربته كمشروع لبداية حياة جديدة، لكنه يفشل في ذلك ويرجع إلى الخمارة للهروب من واقعه المأساوي، ويعمل ساقي كؤوس من جديد يرزخ تحت وطأة غربته التي تغربه عن المكان ككل. "لقد تركت مادلين ومكتبتها، وعدت إلى البار الباريسي القبيح لأعمل من جديد بارمان حقير يوزع المشروبات بيأس ويستمع

---

[51] – المصدر نفسه،ص:125.

[52] – بشير مفتي: أرخبيل الذباب، ص: 126.

[53]– المصدر نفسه، ص:127.

لحكايات من لفظتهم الحياة بألم، عدت إلى لحظة الانفجار والتعاسة والقلق والانتظار قبل أن أقرر العودة إلى الوطن ذات مساء"[54].

لكن عودة محمود البراني إلى الجزائر يخامرها شعور باليأس، فوصوله إلى الجزائر زاد من غربته في المكان الذي لم يعد مألوفا له، ليفقد بذلك عالمين يرى فيهما نفسه مغتربا، فلحظة وصوله إلى المطار يحس بتلك التناقضات التي تملؤه حول بلده."كان وصولي إلى الجزائر مثيرا للغاية، غريبا في نفس الوقت، لم أُقبّل الأرض التي تركتها قبل أن تعرف طعم الحرية وتذوق حلاوة الاستقلال "[55] .

ويحاول محمود البراني التأقلم مع واقعه الجديد، وتحيا فيه جذوة المثقف فيعود إلى عالمه وحبه للكتب والمكتبات، فيشتري لنفسه مكتبة يبيع فيها الكتب، ليجد شيئا من الطمأنينة تنسيه جحيم غربته ووحدته في بلده " فتحت أبواب المكتبة صباح يوم السبت، شعرت وأنا أفعل ذلك بالانتصار على أشياء كثيرة بداخلي، وكانت روح التحدي تملأني بالنشوة والقدرة على المقاومة...قلت لنفسي هنا كل عمل أقوم به له قيمة في الآن ذاته كنت أودّع سنوات الغربة نهائيا، أيام التصعلك وليالي البيرات والأحزان الثقيلة"[56].

ولكن تشاء الصدف أن تطفو الأحداث السياسية إلى الواجهة، ويبقى محمود البراني في موقع المراقب يحاول أن ينأى بنفسه عن ما يحصل في الخارج، ويتعرف على ثلّة من المثقفين يعيشون غربتهم الفكرية مثله شخصية"س" وشخصية مصطفى وسمير الهادي، لكن ما يزيد من غربته هو أنه يتعرف بالصدفة على شخصية ناديا تلك الفتاة التي تركها في بطن أمها ذات يوم من أيام الغربة في إسبانيا، وهنا يزداد عذابه النفسي كأب لايستطيع أن يضمّها أو أن يتفوّه لها بالحقيقة. " تمالكت نفسي بصعوبة وتحكمت في شجن الذاكرة البعيدة صامدا أمام حكمة السماء التي غمرتني بأحزانها وأفراحها دفعة واحدة، قاومت بشدة حالات ضعفي أمام ناديا تعثر لساني، دهشتي المفعمة بحنان الأبوة، وركنت للأمر في كونها قريبة مني، وأنّ ذلك من شأنه أن يسعد هذا القلب الذي لطالما تصحّر بفعل كلّ سنوات الغربة والبرد والحرائق التعيسة "[57].

ولكن كل هذا نسفه طغيان العنف، وبداية عهد الفوضى والتهديدات والشعارات السياسية العنيفة، ليجد نفسه في مفترق طرق بعد أن فقد جميع أصدقائه الذين عرفهم بالهجرة أو القتل أو الهروب أو الانتحار. " لم

---

[54] – المصدر نفسه، ص:129.

[55] – المصدر نفسه، ص:129.

[56] – بشير مفتي: أرخبيل الذباب، ص:130.

[57] – المصدر نفسه، ص:141.

أستطع التكهن بما كان يحدث أمامي، كان البلد يعجّ بالصخب والفوضى بما يحث من صراعات وحروب كلامية، وكان الحيّ الهادئ بباب الواد يدخل المعركة هو الآخر"[58].

لقد كان أمر الحرب مخيفا لمحمود البراني الذي يختار هو الآخر غربة سياسية جديدة، ويبحث عن مكان وملاذ آمن بعد أن فقد كل شيء، ولم يعد سوى مجرد ذاكرة تسحقه أفكاره." كانت رحلتي إلى الصحراء هي آخر أسفاري إلى مكان يتجرد فيه الإنسان إلا من علاقته بالذاكرة والطبيعة والموت"[59].

وهكذا يختار محمود البراني الاغتراب من جديد، لكن هذه المرة داخل الوطن، حيث لم يعد المكان يتسع لوجوده مع انتشار الفوضى والعنف، ويقرر التواري عن الأنظار في صمت. "تخفيت عن أنظار الناس كل هذه الفترة بعدما أحرقوا المكتبة، فهمت ما الذي يراد لي، وما الذي يجب عليّ أن أفعله، لقد سافرت إلى أقصى البلد متنقلا بين حافلة نقل وشاحنة خضار وسيارة أجرة، مبتعدا قدر الإمكان عن مدينة كانت تغرق في فتنة الحريق وتشهد لحظة انفجار لا مثيل لها "[60] .

وخلاصة لما قلناه سابقا يمكننا القول:

– ظاهرة الاغتراب من أكثر الظواهر وجودا، وأكثرها ضبابية في حياة الإنسان، حيث أن الشعور بها يكاد يكون عند جميع البشر على اختلاف مستوياتهم، فهي ظاهرة نفسية قبل كل شيء.
– غالبا ما يرتبط الاغتراب بالوطن والمكان، وليس هذا سوى جزءا بسيطا من أنواع الاغتراب، حيث يعتبر الاغتراب الذاتي أشدّ أنواعه خطرا على الإنسان.
– الاغتراب في الأدب ظاهرة قديمة قدم الشعور بها، فالشعور بالحزن والمرارة وفقدان الأمل والحنين إلى الأوطان حافلة به القصيدة العربية.
– يعتبر الاغتراب الثقافي أحد أشدّ أنواع الاغتراب خطورة، كونه متعلقا بفئة معينة من الناس هم الشعراء والكتاب والمثقفين عموما .
– يعتبر بشير مفتي أحد الروائيين المعاصرين الذين طرحوا مشكلة اغتراب المثقف في جميع رواياته تقريبا حيث تشكل عنده ظاهرة نفسية اجتماعية يصعب التخلص منها عند الشخصيات المثقفة.
– تعد رواية أرخبيل الذباب إحدى روايات بشير مفتي التي يشكل فيها اغتراب المثقف هاجسا روائيا حيث تبدو شخصياتها هشة لا تقدر على المقاومة، ينتهي بها الأمر إلى التسليم والضياع.

---

[58] – المصدر نفسه، ص:144.
[59] – المصدر نفسه، ص:151.
[60] – بشير مفتي: أرخبيل الذباب، ص:124.

– رواية أرخبيل الذباب هي رواية إسقاطية للكاتب نفسه، كونه عاش جحيم الغربة الزمانية والمكانية سنوات التسعينات؛ لذلك يربط اغتراب المثقف في هذه الرواية بالعنف.

– شخصيات رواية أرخبيل الذباب شخصيات انفصامية انعزالية، تشعر باليأس والضياع رغم الحماسة الظاهرة عليها في البداية.

– يشكل العنف الرابط الجوهري في هذه الرواية، حيث يتمازج مع جو نفسي اغترابي يجعل الشخصيات تموت مثلما يموت الذباب.

– يمثل العجز واللامعنى والعزلة والاغتراب عن الذات وفقدان الثقة الرابط الذي يربط بين شخصيات رواية أرخبيل الذباب .

– جميع شخصيات هذه الرواية مثقفة بداء من شخصية "س" إلى شخصية مصطفى إلى سمير الهادي إلى محمود البراني، وكلها شخصيات مغربة عن ذاتها ينتهي بها المطاف مقتولة أو منتحرة أو هاربة أو متوارية عن البصر، بعد أن تفقد كيانها كشخصيات مثقفة، وتصبح عاجزة عن صنع الإبداع وتختار الاغتراب الطوعي أو القسري، لينتهي بها المطاف هالكة تقتلها أفكارها بعدما تفقد سمة التعايش مع واقعها وتصبح فيه غريبة عاجزة عن الفعل ورد الفعل.

المصادر والمرجع:

1– ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت لبنان، دط، دت، ج1.
2– أبو حيان التوحيدي: الإشارات الإلهية، تح: عبد الرحمن بدوي، دار العلم، بيروت لبنان، ط1، 1981.
3– أبو فراس الحمداني: الديوان، شر: خليل الدويهي، دار الكتاب العربي ،ط2، 1994.
4– امرؤ القيس: الديوان، تح، مصطفى عبد الشافي، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط5، 2004 .
5– إميل دوركايم: الانتحار، تر:حسن عودة، منشورات الهيأة العامة السورية للكتاب، وزارة الثقافة دمشق،2011.
6– بشير مفتي: أرخبيل الذباب، منشورات البرزخ، الجزائر، 2000 ص: 9.
7– بشير مفتي: سيرة طائر الليل، نصوص، شهادات، أسئلة، منشورات ضفاف بيروت لبنان، منشورات الاختلاف الجزائر ط1، 2013.
8– حليم بركات: الاغتراب في الثقافة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت لبنان، ط1، 2006.
9– زهير ابن أبي سلمى: الديوان، شر:علي حسن فاعور، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ط1 ،1988.
10– عبد اللطيف محمد خليفة: دراسات في سيكولوجية الاغتراب، دار غريب للطباعة، القاهرة،2004.
11– عبد اللطيف محمد خليفة: دراسات في سيكولوجية الاغتراب، ص:145، 146.
12– عنترة ابن شداد: الديوان، دار صادر، بيروت لبنان، ط3، 2012.
13– فرج عبد القادر طه آخرون: معجم علم النفس والتحليل النفسي، دار النهضة العربية، بيروت لبنان، ط1.
14– قيس بن الملوح: الديوان، شر: رحاب عكاوي، دار الفكر العربي، بيروت لبنان، ط1، 1994.
15– محمود سامي البارودي: الديوان، تح: علي الجارم، محمد شفيق معروف، دار العودة، بيروت لبنان، 1998.
16– يحي عبد الرؤوف عبد الله: اغتراب الشخصية الروائية، دراسة في روايات الطاهر بن جلون، رسالة ماجستير جامعة مؤتة، الأردن، 2004.

الهوامش: